ترك توفيق صايغ ثلاث مجموعات شعرية نشرت جميعها في بيروت . اولها «ثلاثون قصيدة»(٣) صدرت في العام ١٩٥٤ . وثانيها « القصيدة ك »(٤) ونشرت في العام ١٩٦٠ . والثالثة هي « معلقة توفيق صايغ »(٥) وصدرت في العام ١٩٦٣ . ثم نشر توفيق بعد ذلك قصائد اخرى في المجلات ولكنها لم تجمع بعد ، كان اخرها مجموعة من قصائد الحب بعنوان « أيضا وايضا » نشرت في اخر عدد من اعداد مجلة « حوار » في اذار — نيسان ١٩٦٧(٦) .

ركز توفيق في جميع اعماله الشعرية على ثلاثة جوانب رئيسية في وعيه الشعري يوحدها موضوع واحد : تلك الجوانب هي الوطن والحبيبة والخالق ، وذلك الموضوع هو الحب . الا انه لحظة ما يصل الشاعر الى ذروة الاحساس وقمة الوعي وأسمى درجات رقة الشعور تتداخل الجوانب الثلاثة معا وقد تفهم القصيدة عندها على مستويين او حتى ثلاثة مستويات من المعنى بالقدر نفسه . ويصير موضوع الحب الذي يعم شعر توفيق عميقا لدرجة يتحول معها من عاطفة متأججة الى كراهية ظاهرية .

وفي خضم هذا الحب الشديد يظهر الوطن وكأنه موضع كراهية بسبب تأخره مقابل ماضيه المجيد ، كما يظهر وكأنه موضع انتقاد وتأنيب بسبب خضوعه للزعامة المستبدة وتعهيره للمثل السامية . ومن اعماق هذا الحب الشديد ايضا ينظر الى حبيبته القاسية وكأنها حاملة العذاب والموت ، ويرى في رغباتها الجسدية وشهوانيتها خطيئة قاتلة لا بد من تجنبها . ومن حرارة هذا الحب ايضا نظر أخيرا الى الله وكأنه «حارس السماء» الذي يتبع الشاعر بلا كلل مراقبا ضعفه وخطيئته .

لذلك قد يكون من الانسب القول ان الموضوع الرئيسي الذي يدور حوله شعر توفيق هو الاغتراب : الاغتراب تجاه الوطن والاغتراب تجاه الحبيبة والاغتراب تجاه الله . يصح قول ذلك اذا ما فهمنا ان اغتراب الشاعر أمر لا خلاص منه ، مبعثه الحب الذي يراه الشاعر مشوها تشويها مأساويا ، ومحطما تحطيما مستمرا بواسطة ظرف الانسان او ضعفه ، وسببا دائما للمعاناة ، لذلك فان شعر توفيق هو صرخة متألمة تعبر عن وضع الانسان وتستحق الاهتمام والانتباه لانها تلقي ضوءا على روح الانسان في القرن العشرين .

لنتناول الجوانب الثلاثة الان بشيء من التفصيل .

الوطن : فلسطين هي الوطن الذي نشأ فيه توفيق طفلا وترعرع شابا . ان بحيرة طبريه والناصرة وجبل تابور والمجدل وبيت عنيا والقدس وبيت لحم كانت بالنسبة لتوفيق أكثر من أسماء لاماكن على الخارطة وأكثر من ذكريات ورد اسمها في الكتاب المقدس وفي «مدرسة الاحد» . تلك أجزاء من كينونته عملت على تكوين ذاته الواعية وغير الواعية التي عبر عنها في شعره فيما بعد . لقد أحب وطنه وتذكر اللحظة الحزينة التي طرد فيها من وطنه في العام ١٩٤٨ . ان صور تلك اللحظة المأساوية تتردد كلما نظر الى الوراء الى حياته المضطربة في « معلقته » التي نظمها في العام ١٩٦١ . يقول توفيق :

حياتي تلاحق نار ونار ، / زماني أؤرخه بالنار ، / تشعط وتأكل ، / تشحذ السيوف .

ثم يقول بعد رجوعه من القدس الى طبريه :

هربا من النار جئنا الماء . / من رفسة بالظهر الى / ذراعين في انفتاح . / هربا من النار المدنسة / جئنا المياه المقدسة ، / تضرب حيطان بيتنا / نشربها بلا تصفية . / يسوع الشيخ / عاد فتيا يلاعبني ، / اله الصلوات الطوال البعيد / انتشلني لدياره / جعلها دياري .

أما عن لجوئه الى لبنان فيقول في مكان اخر من القصيدة ذاتها :